حصـــاد الغـربة

رسـائل إلى المبتعـثين

أ.د. محمد بن سعود البشر

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال:

الحمد لله على كل حال .. والصلاة والسلام على من قال:

(**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**).. وبعد:

هذه الرسائل خلاصة أوراق عفا عليها الزمن ..

لكن كلماتها لا تزال تنبض بالحياة ..

كانت لي في غربتي أيام البعثة زاداً في المسير..

وتسرية للهمِّ ... وتثبيتاً على الطريق ..

وصلتني من إخوة أخلاء... أو أرسلتها إلى رفاق أوفياء ..

استخلصتها في هذه الوريقات؛ لأقدمها إلى أولئك

الذين بدؤوا مسيرة الغربة ..
أو ما فتئوا يكابدون عناءها ..
لعلها تكون عوناً لهم فيما تبقَّى من أيامهم ..
حتى لا يجمعوا بين غربتين ..
غربة الدِّين .. وغربة الوطن.

منازل الغربـة

أخي المغترب!

وأنت تضع قدمك في أول الطريق.. وعلامات الاستفهام تتزاحم في مخيلتك.. ومشاعر الخوف من الغربة تهز فؤادك.. تذكَّر أن الغربة منازل.. والناس فيها درجات.. أقطف لك من كلام الصالحين باقة.. تكون زاداً في المسير.. وعوناً في الطريق.. تفريجاً للهمّ.. وتسلية للفؤاد.

اعلم – يا رعاك الله – أن الغربة منازل[1]:

فالأولى: غربة أهل الله.. وأهل سنة رسول الله ﷺ بين هذا الخلق.. وهي الغربة التي مدحها ﷺ.. وأخبر عن الدين الذي جاء به أنه (**بدأ غريباً**).. وأنه (**سيعود غريباً**).. وأن: (**أهله سيصيرون غرباء**).

وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان.. وفي وقت دون

(١) ابن القيم، (مدارج السالكين)، ٣/٢٠٣، وما بعدها.

وقت.. وبين قوم دون قوم.. ولكن أهل هذه الغربة هم أهل اللّٰه حقاً.. فإنهم لم يأووا إلى غير اللّٰه.. ولم ينسبوا إلى غير رسوله ﷺ. وهذه الغربة لا وحشة على صاحبها.. بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس.. وأشدّ ما تكون وحشته إذا استأنسوا.. فوليُّه اللّٰه.. ورسوله.. والذين آمنوا.. وإن عاداه الناس وجفوه.

(خرج موسى عليه السلام هارباً من قوم فرعون.. ولما انتهى إلى مدين وهو وحيد، غريب، جائع، خائف، قال: يارب! وحيدٌ مريضٌ غريب؟

فقيل له: يا موسى! الوحيد من ليس له مثلي أنيس، والمريض من ليس له مثلي طبيب.. والغريب من ليس بيني وبينه معاملة).

وقال الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب، لا يجزع من ذلها، ولا ينافس في عزّها.. للناس حالٌ وله حال، الناس منه في راحة، وهو من نفسه في تعب.

والثانية: غربة مذمومة، وهي غربة أهل الباطل.. وأهل الفجور بين أهل الحقّ.. فهي غربة بين حزب اللّٰه

المفلحين.. وإن كثُر أهلها.. فهم غرباء.. على كثرة أصحابهم، وأشياعهم.. يُعرَفون في أهل الأرض.. ويخْفَون على أهل السماء.

وأما الأخيرة: فهي الغربة عن الوطن.. والناس في هذه الدنيا غرباء.. ليست لهم بدار مقام.. ولا هي الدار التي خُلِقوا لها..

(كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابر سبيل).

طبقات المغتربين

أخي المغترب!

اعلم – يا رعاك اللّه – وأنت تبدأ رحلة الغربة أنَّ الناس فيها على ثلاثة:

فمنهم مؤمن صادق.. لم تزده الغربة إلا إيماناً وتثبيتاً.. ويقيناً وتصديقاً.. قد أشرق وجهه بنور الطاعة.. فحمل مشعل الهداية.. لم تَضرُّه الغربة.. ولم تؤثِّر فيه التربة.. لأنه يمشي على الأرض وقلبه مُعَلَّق بالسماء.

ومنهم من هاجر.. لا يعرف من الإسلام إلا اسمه.. ولا من الإيمان إلا رسمه.. مسلمٌ بالهويّة.. وتابع بالفطرة.. تقلّب في المعصية في وطنه.. وهاجر بها معه في غربته.. فاطْمَأنَّ إليها.. واستكان لطعمها.. وخَبِرَ حال الناس فيها..

حتى إذا ملَّ التقلُّب في لذائذها.. وانتهى إلى نهايتها.. انتبه إلى حاله.. وأفاق من غفلته.. فتحركت عروق الحياة في فؤاده.. واستجاب لداعي الفطرة.. وتعلَّق بحبل النجاة..

والتحق بقوافل التائبين.. فقاده إلى مرافئ السعادة.. وأسفر وجهه بنور الطاعة.. وأنِسَ في وحشته وغربته بقربه من خالقه.. فكساه ذلك سعادةً وحبوراً.. ثم عاد إلى أهله.. وإلى دياره.. (**حديثاً طيباً لمن وعى**).

ومنهم من اغترب مؤمناً.. وهاجر صادقاً.. فما لبث أن خلط عملاً صالحاً بآخر سيئاً.. وتعلَّق بقرين بئيس.. لجَّ وإياه في ظلمة المعصية.. فقرُب منها.. وركن إليها.. أو خَطَفَ بصره بريق للحضارة زائف.. فخرم عقله.. وأسر لُبَّه.. حتى إذا تقلَّب في الدنيّة سنين عدداً.. تحركت بواعث التأنيب في ضميره.. فمنهم تائب ومستغفر.. ومنهم مُصِرٌّ ومستكبر.

فتأمَّل – يا رعاك الله – كيف انتهى كلٌّ إلى نهايته:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾..

فانظر من أيِّ هؤلاء أنت.. وتذكَّر:

أن كثيراً من الناس من يعيش.. وقليلاً منهم من يدرك.

كن حديثاً طيباً

أخي المبتعث!

وإنَّما المرء حديث بعده

فكن حديثاً طيباً لمن وعى

كان لا بد أن أبدأ بهذا البيت من الشِّعر.. لما يتميز به من صدق العبارة.. وصدق الدلالة.. وعمق الشعور.

(**وإنما المرء حديث بعده**).. يبقى ذكريات ماتعة.. أو ذكريات منغصة.. تهدُّ الحيْل.. وتهرم الشعور.. يبقى صفحة بيضاء نقية.. أو سوداء قاتمة.. تأتي بالدوار.. وتصيب بالغثيان.

(**فكن حديثاً طيباً**).. كن حديثاً.. ولكن أيُّ حديث؟ حديثاً طيباً.. طيباً في القول.. طيباً في الخُلُق.. طيباً في السَّمْت.. طيباً في البدن.. طيباً في القلب.. طيباً في المعاملة.

(**لمن وعى**).. لأنه قد يكون لك أعداء.. فينكرون طيبتك..

ويحولون تقواك إلى عَجْزٍ.. وكَسَل.. وتهاون.. ولأنه لابد للإنسان من أعداء.. فأول هؤلاء الأعداء نفسك.. ومن صان نفسه عَزَّ.. فاجعل الدين والعقل حَكَماً عليها.. وبذلك تصون نفسك.. وتحفظ فِعلك.. وتحرس مروءتك.

فتَّشت في القراطيس.. ونقَّبت في قواميس الكَلِم.. لعلي أصِل إلى فؤادك.. والناس إنما يرزقون الأفئدة النبيلة.. والمشاعر المرهفة.. عندما يكون أحدهما للآخر: قلباً واحداً.. ونبضاً مشتركاً.. يسري فيهم الهَمّ جميعاً..

ولأنني لا أبحث في السراب.. ولا أحرث الوهم.. ولا أنقش على صفحة الماء. فإني أقول لك – وعسى أن أُوفَّق –:

إنَّ حملة الأقلام.. وشداة الحرف.. ورسل البيان يخاطبونك يا من اختار دروب العلم.. وتكبَّد عناء الغربة.. يخاطبونك وقد تسربلوا بوشاح المعرفة وائتزروا بالأدب.. ثم حملوا القلم.. وخاضوا بحور الكلمة ليقولوا لك:

إن التسارع الحضاري.. عملاً.. وإنجازاً.. وإبداعاً.. يريد عقيدة.

وهل هناك خير في غير عقيدتنا؟

إنها الفعل والغاية.. الكنز والرمز معاً.. فاحرص على التمسك بها.

في هذه الحضارة.. ليس هناك مكان للكسل.. والخلود إلى الراحة، أو الاتِّكال والعبور السالب للعالم.. دون تغيير أو إعمار.

أنت – إذن – مطالَب بأن تكون داعية:

داعية بالحق.. وداعية إلى الحقِّ..

تحمل القرآن.. فهو نور في القلب.. ونور في البدن..

لأنه ليس من صفة الإنسان أن يَمُرَّ سابحاً في العوالم.. بل ليس من صفة المسلم أن يعيش دون إحداث تغيير.. أو إحلال قيم جديدة.. تربط السماء بالأرض..

ولا تكن **كميِّت الأحياء.. الذي لا يعرف معروفاً.. ولا يُنكر منكراً..**

ولا بد لك من إرادة فذَّة.. تشدّ بين رؤية العقل.. وقوة البيان.

ولا يغب عن بالك:

أن ثقافتنا تشهد بواكير تقديرها.. وهي ارتسامات ماتعة..

وطلائع منجزاتها.. وهي نجوم زاهية..

ومواقع عطائها.. وهي رايات مشرعة..

فكن من حُرَّاسها الأمناء.

* * *

أخي المبتعث!

اعلم – يا رعاك الله - أن الشعاع والوَهَج لا يحطم الزجاج.. ولكنه يَخْرِم عقول البشر.. ويغيِّر الأفكار.. ويأسر القلوب.. كما يأسر الفَرَاش نور السراج.. وأَسْرُ العقول أشدُّ وأنكى..

لأن أسر العقل هو أسرٌ للفكر.. وتحقيل للثقافة.. وتفتيت للشعور.

فانظر إلى المادة بعقلك.. لا بنظرك..

لأنها تصغر بالعقل.. وتكبر بالبصر.

وانظر إلى الكون ببصيرة.. تنظرُ أوسع مما ترى العين.

إنك إن قصرت الرؤيا على العين فقط كبُرت الدنيا بطلاسمها في عينيك..

وإن رأيتها ببصيرة ثاقبة.. خِلتها صغيرة واحتقرتها..
وجعلتَ الروح أغلى من المادة وأثمن.

* * *

أخي المغترب!

خوفي عليك..

هل تجيد فنَّ التحليق في الأجواء الشائكة ؟

وقلقي عليك..

أن تكون بمستوى آمالنا فيك ؟

وتبقى الإجابة معلقة بين الخوف والرجاء.. بين الأمل واليأس.. وبين الارتعاش والصمود.

لا تجعل البُعد من الله ديدنك.. فكلما اقتربت في غربتك من الله زدت علماً..

واجعل البعد عن محارم الله نهجك ومبتغاك..

وتذكَّر أن العين تزني وزناها النظر..

فاحفظ بصرك وعينك من النظر إلى محارم الله..

ومن أرسل نظرة فعل بيده وقدمه.. أو يوشك.. وحاشاك.

سوف تذكرنا

أخي المبتعث!

سوف تذكرنا كثيراً..

ولكن متى ؟

إذا رجعت إلينا.. تقرأ التاريخ.. وتستلهم ذكريات مضت.. وتفرح بالإنجاز.. وتذوق حلاوة الصبر.. ولذة النجاح.

أيها المغترب!

حتى لا يكون الكلام سمجاً لا رائحة فيه.. ولا طعم له.. أقتطف لك من الكلام المُصَفَّى عبرة.. ومن كلام المصطفى ﷺ عِظة.

خطب ﷺ فقال: **(أيها الناس.. إنَّ لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم.. وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم.. إن المؤمن بين مخافتين.. بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به.. وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ**

فيه.. فليأخذ العبد من نفسه لنفسه.. ومن حياته لموته.. فوالله ما بعد الموت من مستعتب.. وما بعد الدنيا من دار.. إلا الجنة أو النار).

فلتطلب العلم عزّاً للإسلام.. ورفعة للمسلمين..

وإلا فلا خير في علم يجمع بين غربتين:

غربة الدِّين.. وغربة الوطن.

ولتصنع من صحراء الغربة رياضاً.. ومن غربة الدِّين جناناً.. وإلاَّ تَكُنْ:

كالعيس في البيداء يَقْتُلُها الظَّما

والماءُ فوق ظهورها محمولُ

احذر فلتات الشباب

أيها المهاجر!

أخشى أن يصيب الوجدان الرقيق الجفاف.. فتذبل الأشواق.. وتتصحَّر القلوب.. وتجِفُّ التحايا.. والغربة أشدّ وأنكى من الجفاف:

إنَّ قلباً ينسى الرفاق لقلبٌ
بوداد الرفاق غير زعيم

لكن أشواقنا لن تذبل نحوك.. وقلوبنا لن تتصحَّر تجاهك.. وتحايانا لن تنقطع عنك.. ما بقي شوق يعصف بنا.. وبسمة رقيقة في نواظرنا..

واللّه إن أحدنا ليتذكر فيحنّ.. ويشتاق فيئنّ..

ولن يحنّ أكثر من الإبل إلى مرابعها إلا الإنسان..

ولن يئنّ أكثر من المفجوع في حبيب إلا الغريب عن

الأوطان..

الكلمة ذاتها – مهما تكن مخلصة – لن تفعل شيئاً.. قبل أن تتحول إلى حركة.. وأن تتقمص إنساناً.. والناس هم الكلمات الحيَّة التي تؤدي معانيها أبلغ أداء.

* * *

أيها المبتعث!

احذر فلتات الشباب.. كلما خدعك السراب..

فإنه إن يعظم بعدها شأنك.. يشتدّ على ذلك ندمك..

ولن أوصيك بشيء أنت أهله.

فأنت في الغربة وحيداً.. ومثلك لا يعيش وحيداً..

أنت صاحب رسالة.. وصاحب عقيدة.. وأنت من النخوة والشرف في سامقها ومرتقاها.. والتقوى عماد الإنسان وشرفه.. وأنَّى لمثلك أن تُخدش صفحته.. أو تُثلم مروءته..

والغربة نار لا يدافعها إلا رجل ذو تقوى.. ورع.. يخشى الله ويرعاه.

قبل أن تفعل شيئاً تتردد فيه.. اسأل نفسك:

ما عاقبته؟

ما الأثر المترتب عليه؟

ما موقف الخلق منك؟

ما مردوده على نفسك؟

وقبل ذلك كله:

كيف تتوارى من خالقك؟

فإن أحسست في نفسك حرَّة وندماً.. فلا تفعل.. و(**الإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطَّلِع عليه الناس**).

إن وجدت خيراً فالزمه.. وإن لم تجد فاحمد اللّٰه على نعمة العقل.. فإنها منحة يهبها – سبحانه – لمن يشاء من عباده.

وتذكَّر أن الصقور لا تطمئن إلى أعشاش العصافير!

ولا يرتكس في حمأة الرذيلة من قضى سنيَّ شبابه في معاقل الطهر والفضيلة؟!

وتذكَّر أن الدنيا قد تسلب منَّا القيم التي تربينا عليها.. قيمٌ كانت لا تغيب.. واليوم تكاد ألاَّ تُذكر.. ومبادئُ لا تفارق.. وإذا بها اليوم مجهولة النسب.

ويح الإنسان عندما يتنكَّر..

قبيح بالمرء أن يعيش من سقط المتاع..

إنها معادلة مؤلمة ومحزنة.

حتى لا تكون الخُلَّةُ حَسْرة

أخي المبتعث!

الغربة توجب الخلطة.. والمرء فيها يبحث عن قرين.. يقاسمه شكواه.. ويبوح له بسرِّه.. ويشاركه حزنه.. ويشاطره فرحه..

فاستأجر لقلبك القوي الأمين.. التقي الناصح.. الذي يقيل العثرة.. ويستر الزلَّة.. ويجبر الهفوة.. ويعين على الحقِّ..

فإنك إن لم تفعل تكون الصحبة حسرة وندامة..

وتكون الخلَّة بغضاً وعداوة..

وتكون العشرة بُعْداً وفرقة.

اعلم – يا رعاك الله – أن صحبة السوء من أعظم مفسدات القلوب.. واربأ بنفسك أن تكون ممن يعضّ على يديه: ﴿ **يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا** ﴿٢٧﴾ **يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا** ﴿٢٨﴾ **لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي...** ﴾.

ثم اعلم أن الإنسان ليس مَلَكاً مبرَّأً.. أو نبيَّاً معصوماً، والشيطان يجري منك مجرى الدم.. والوقوع في الذنب سُنَّة أجراها الله على خَلقِه.. ليمحِّص بها عباده.. وحتى يتوبوا إليه ويستغفروه فيغفر لهم.

لكن الإحساس بالخطيئة.. والشعور بالذنب.. والندم على العثرة.. والحسرة على الزلَّة.. والعزم على مفارقة السيئة.. هي أولى مراتب الهداية.. وهي مفتاح محاسبة الذات.. وإيقاع العقوبة على النفس الأمَّارة بالسوء.. وتأنيبها.. وتقريعها. ومعناها بداية لُزوم عتبة العبادة..

ودوام تذكرك لعثرتك هو طارقٌ لقلبك.. يحرك فيه مشاعر الخوف.. ويوقظ فيه معاني الرجاء.. ويغرس فيه بذور الخشية.. فيكون بذلك معلقاً بين الخوف والرجاء.

الطريق طويل.. والغاية واضحة

أخي المبتعث!

أخالك تقول:

إنَّ صاحب الغاية يدفعها من هنا.. ويردعها من هناك..

ويقوِّمها حين تميل..

لكنه لا يكسرها أو يحطمها..

وأنا أقول: إنه يصبر عليها صبر العارف.. البصير الواثق.. لتحقيق الغاية المرسومة.. والذي لا يتم في المرَّة الأولى.. يتم في المرة الثانية.. أو المائة أو الألف..

فالزمن ممتد.. والغاية واضحة.. والطريق إلى الهدف الكبير طويل وشاق.

والمرء يطوف في زورق الحياة يرى العالم الكبير.. وقد غدا قرية صغيرة.. يعرف أحوالها.. وبعض آلامها..

لكن العالم وإن بدا كذلك إلا أنه لا بدَّ من جهد مُضْنٍ حتى تتحقق تلك النظرة المفعمة بالأمل.. والمغرقة في

التفاؤل..

فقد تبدو النظرة صحيحة من حيث ظواهر الأشياء.. وطبيعة تفاعلها.. ولكن أسباب ذلك مختلفة.. ودواعي ذلك متنوعة.. وظروفها متغيرة.. وسجيَّة أهلها كذلك.. والإنسان بفطرته لا يزال يبحث..

يبحث عن الذي يغذي روحه.. ويزيد في عقله.. ويجذبه إلى الطمأنينة الكاملة.. والراحة التامة..

ولن يتحقق ذلك إلا بدين يحمل الصدق.. ويحث على الإيمان.. ويبعث عليه.. ولن يكون ذلك إلا في (الإسلام).

قبل الوداع

أخي المغترب!

تحية لك من كل سعفة نخل.. ومن كل صهوة جواد.. ومن كل شذى وردة.. ومن كل تغريدة طير..

حب يدفعه تقدير.. يسابقه إعزاز.. يحمله شوق.

لئن شطَّ المزار وبَعُد.. فإن الرسائل نعم الشمائل..

فهي تفريج للهمِّ.. وتسرية للبيب..

نحن بخير إن سمعنا أخبارك..

نحن بخير إن تمسكت بعقيدتك..

نحن بخير إن لم تُفرِّط في قيمك..

نحن بخير إذا فرحنا بإنجازك..

أنت غائب شاهد..

غائب بالجسم.. شاهد بالقلب..

محلك القلب.. لن تنزل عنه.. ولن ترحل..

فأنت مقيم ما بقيت على عقيدتك..

ويوم تتحوَّل عنها نتحوَّل..

لكن الأمل يبقى ووعد اللّه ينفذ..

وسيحمل النَّصر قوم.. يمشون على الأرض وقلوبهم معلَّقة بالسماء.